الزخرفة
فى الفن البيزنطى

الفن البيزنطى

مقـدمة

تكون الفن البيزنطى فى الإمبراطورية الرومانية الشرقية التى شملت بلاد الإغريق وشبه جزيرة البلقان وأسيا الصغرى والشام وشمال أفريقيا وكانت بيزانطة (**القسطنطينية**) مقر حاكم هذه الإمبراطورية .

وفى عام ٣٣٠م أعلن قسطنطين عاهل الإمبراطورية أن المسيحية هى الديانة الرسمية للإمبراطورية الشرقيةفازدهر الفن البيزنطى وإمتد حتى بلغ إيطاليا وخاصة فى البندقية وقد بلغ هذا الفن أوجه فى القرن السادس الميلادى .

وقد أخذت بيزانطة عن روما وعن مدنيات الشرق ماتجمع منها وقد بدا حسن هذا الفن فى الألوان الشرقية البديعة التى عمت جميع أرجاء هذه الإمبراطورية وشاع استخدام القباب مع الأسقف المائلة فى البلاد التى سبقت باستخدامه

السمات العامة المميزة للفن البيزنطى :ـ

هناك لبس بين طرز الفن البيزنطى والرومانى للعمارة حتى خلال السنوات القليلة الأخيرة فقد إمتد هذا اللبس نفسه أيضاً إلى زخارفهم بالتبعية . وقد نبع هذا الإبهام أساساً من قلة الأمثلة التى يمكن أن يستند إليها فى الحصول على فكرة محددة كاملة عن مكونات الزخرفة البيزنطية الخالصة .

فبالنسبة للمبانى شيدت من الحجر أو من الطوب ولم يكن مظهرها مستساغا لذلك اكتست الأسطح بطبقة من الملاط تسهل زخرفتها . أو تطعيمها بالفسيفساء أو بشرائح الرخام الملونة .

ويمتاز هذا النمط بشيوع استخدام القباب فوق ضلات ترفعها الأسقف وتنيرها فى الوقت نفسه وهذه القباب تحملها تواشيح ناتجة عن اتصال العقود الحاملة وكانت هذه التواشيح مناسبة جيدة لعرض الألوان الجذابة فى صور الفرسك أو الفسيفساء أو حفر هذه التكسية حفرا خفيفاً ملوناً .

أما الزخارف المعمارية : فقد كانت الآثار الرومانية مخزناً للكثير من التفاصيل المعمارية السابقة وخاصة ماأخذ منها كأبدان الأعمدة وعندما إشتد عود هذا النمط فى القرن الثالث الميلادى خفضت أعضاء الكرنيشة الكبرى وظهرت أنواع مختلفة من التيجان والطبالى الحاملة للعقود التى كانت تصنع من الرخام أو من الحجر

وربما لاتكون الملاحظة موافقة لإظهار سمات طراز الفن فى أى فرع من فروع الفن أكثر من فن الزخرفة وهكذا كان الحال فى الطراز البيزنطى فقد لوحظ أن مدارس مختلفة قد اتحدث لتشكل صفته المميزة .

وسنتجه باختصار إلى تحديد ماهى الأسباب الأساسية المشكلة لهذا الطراز .

فحتى قبل انتقال مقر الإمبراطورية الرومانية من روما إلى بيزنطة فى بداية القرن الرابع لوحظ أن جميع الفنون تبدو فى حالة من الفخامة والأبهة سواء فى الميل أو التحريف أو فى التغيير الكامل .

ومن المحقق كما يبدو أن روما قد أعطت طرازها الفنى المميز إلى العديد من المستعمرات الأجنبية الممتدة تحت سيطرتها ومن المؤكد أن الفن المولّد لمقاطعاتها

قد أثر جوهرياً فى هذا الطراز السخى للزخرفة والذى ميز الحمامات الرائعة والأبنية الحكومية الأخرى فى روما . وقد وجد قسطنتين نفسه مضطراً عند بداية استقراره فى بيزانطة إلى جلب الفنانين والعمال من الشرق حيث صنعوا التغيير الذى استمر أكثر حيوية ووضعوا علامة تغيير فى الطراز التقليدى وكل شعب أضيف إلى الإمبراطورية أعطى تأثيره إلى المدرسة المشكلة حديثاً حسب مدنيته وقدرته الفنية حتى إنصهر أخيراً هذا التجمع المتعدد الألوان فى طراز واحد منسق ككل - خلال الحكم الطويل والرفاهية فى عهد قسطنطين الأول .

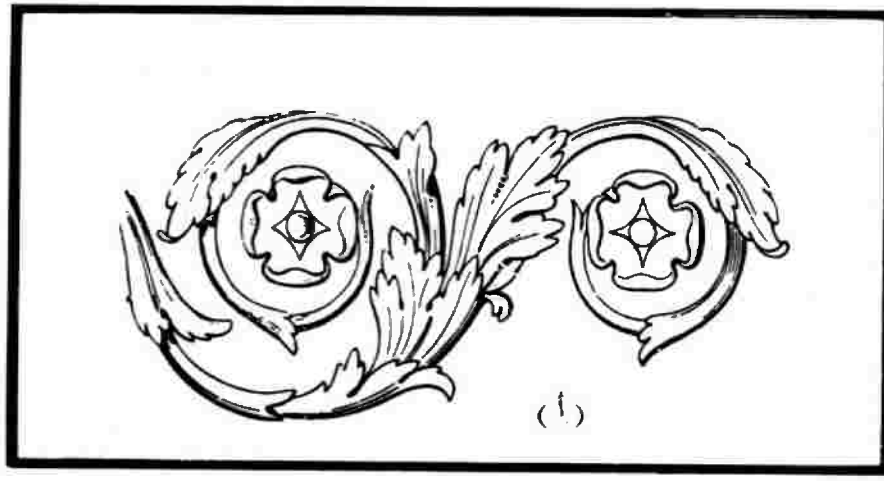

زخرفة من معبد فينوس ويلاحظ فيها أمثلة للأوراق المتشابكة

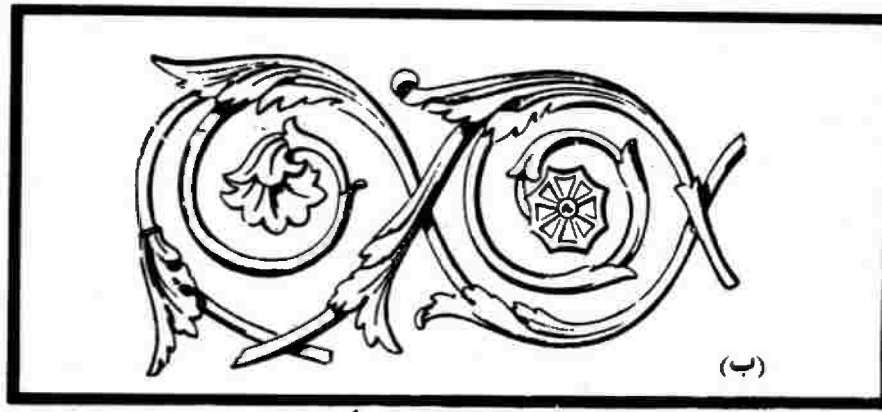

زخرفة من باب معبد حيث يظهر فيها التأثير بالصبغات المميزة لطراز أغسطس الفنى

ومن فحوص الزخارف على المسارح والمعابد المبنية فى أسيا خلال حكم القياصرة لوحظ الاتجاه إلى الانحناءات البيضاوية فى الخط الخارجى والأوراق المدببة الحادة، وزخارف الأوراق الممتدة بدون وجود الكرة البارزة والزهرة والتى ميزت الزخارف البيزنطية .

فعلى إفريز مسرح وفى معبد فينوس (**فى الشكل أ**) يلاحظ أمثلة للأوراق المنسابة المشار إليها فيما سبق . **وفى الشكل ب** زخرفة من باب معبد حيث يظهر التأثر بالصفات المميزة لطراز أغسطس وفصوص تاج أعمدة المعبد الصغير (**باترا**) فى الشكل جـ .

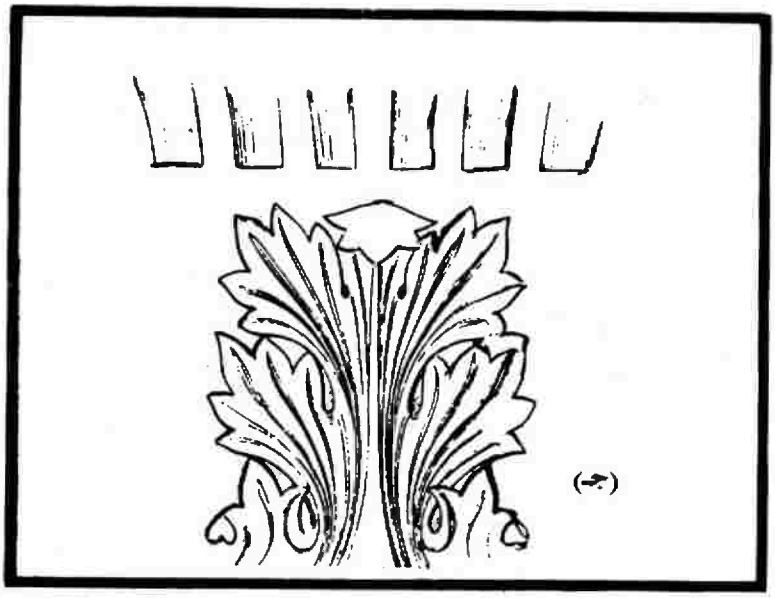

فصوص تاج عمود من المعبد الصغير (باترا)

ولايمكن تحديد مدى تأثير الفن البيزنطى بالفن الفارسى ولكن من المؤكد أن الصناع الفارسيين والفنانين قد أثروا كثيرا بأعمالهم فى بيزانطة وفى آثارهم القديمة فى تيجان الأعمدة فى أصفهان يظهر تأثراً بالمميزات البيزنطية فى أوج

وفى الشكل (هـ) يظهر عمود جوفيان متأثرا بالطراز الفارسى .

وفى (بيرسيبوليس) يمكن أن نرى الأوراق المدببة والمقسة المميزة للأعمال البيزنطية كما يتضح من المثال المرفق من سانتا سوفيا (و)

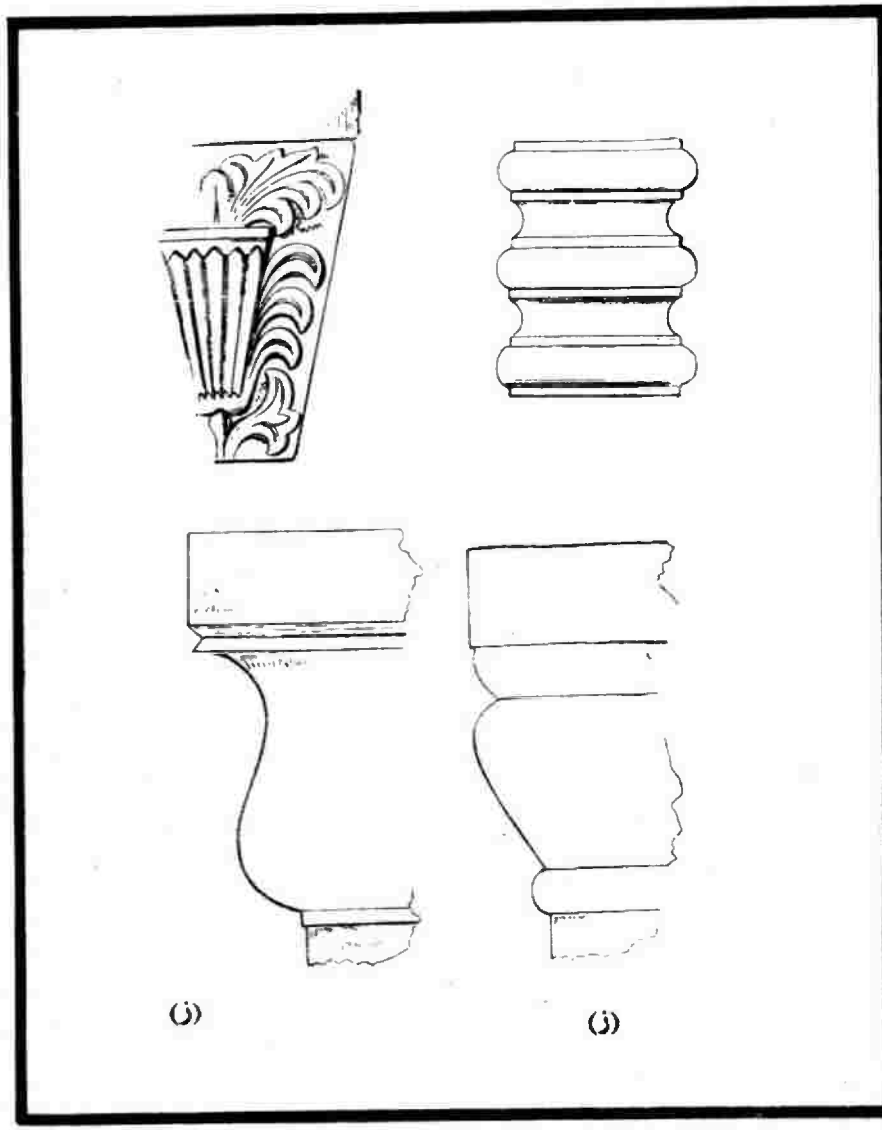

وفى العصر الأخير خلال حكم القياصرة نشير إلى المعبد الدورى (نجوفار) (ز) استدارة الكورنيش مشابهة تماماً لتلك التى أثرت فى الطراز البيزنطى .

ويخلو الفن البيزنطى من التماثيل المنحوتة أما الأشكال الآدمية الأخرى فقد زخرفت بالحز فوق أسطح الحشوات كذلك زخرفت الأسطح بالأكنثس ذات الأطراف الحادة المدببة وقطاعها على شكل رقم ٧ والأرضيات كلها غائرة عن منسوب الحفر

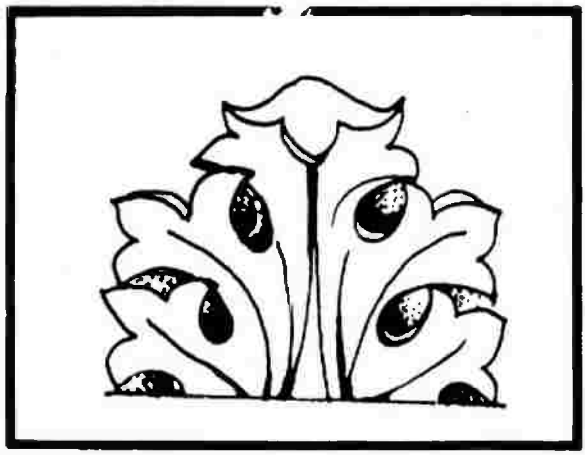

زخرفة من الأكنثس ذات الأطراف الحادة المدببة

ومن العناصر الهامة فى هذا النمط الرموز المحفورة المتشابكة وغير ذلك من الرموز والأشكال الهندسية التى استمر استخدامها على مدى ثلاثة قرون متتالية .

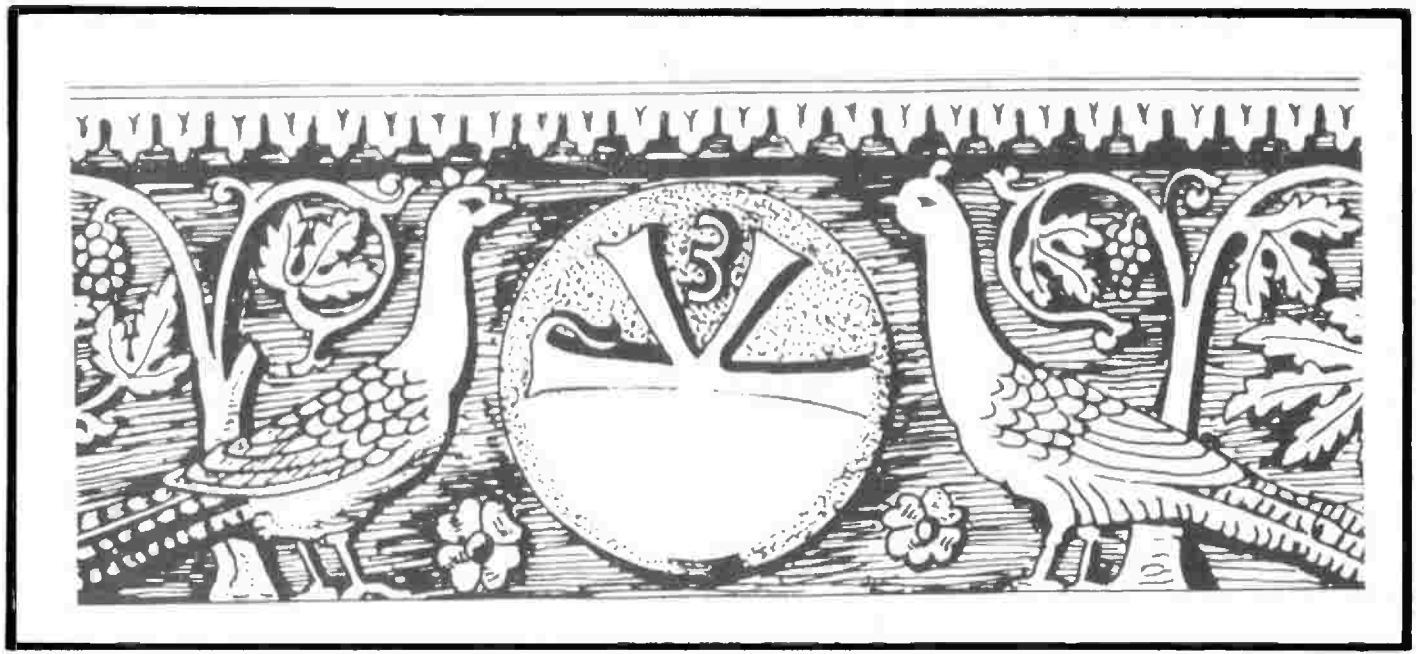

صخر رخامى من ناووس يثودوس سانت أيولونير برافينا بايطاليا
وبها الرموز المميزة للفن البيزنطى الزخرفى مثل الحمامة.

وكونت الأشرطة أبرز علامات الفن البيزنطى المتأخر ومهدت للفن الكلتى فى الشمال بالظهور وقد استفاد العرب من هذه الأفكار فيما بعد .

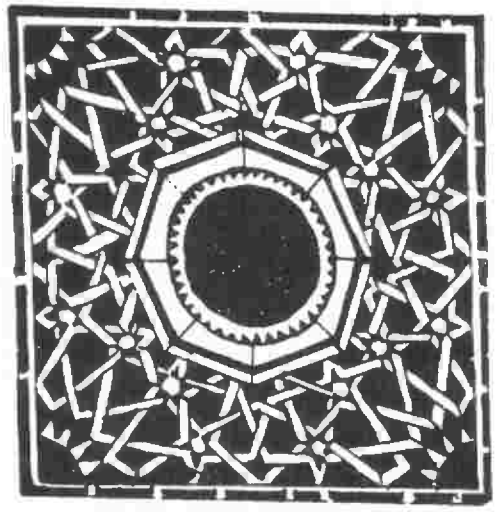

طبق نجمى من أرضية بالبندقية وهو يوضح أثر العرب المستوطنين فيها بعد خروجهم من الأندلس

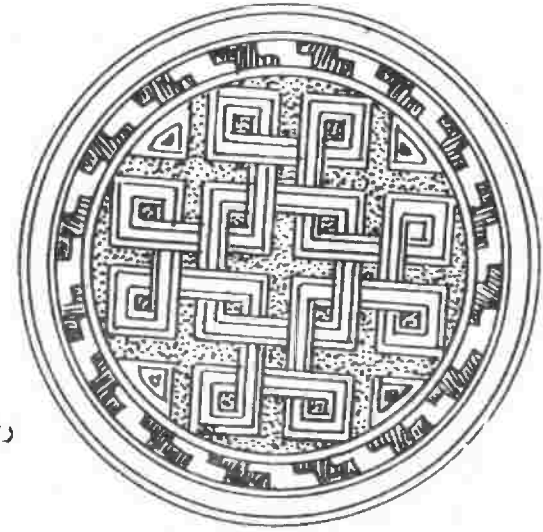

رخام مطعم

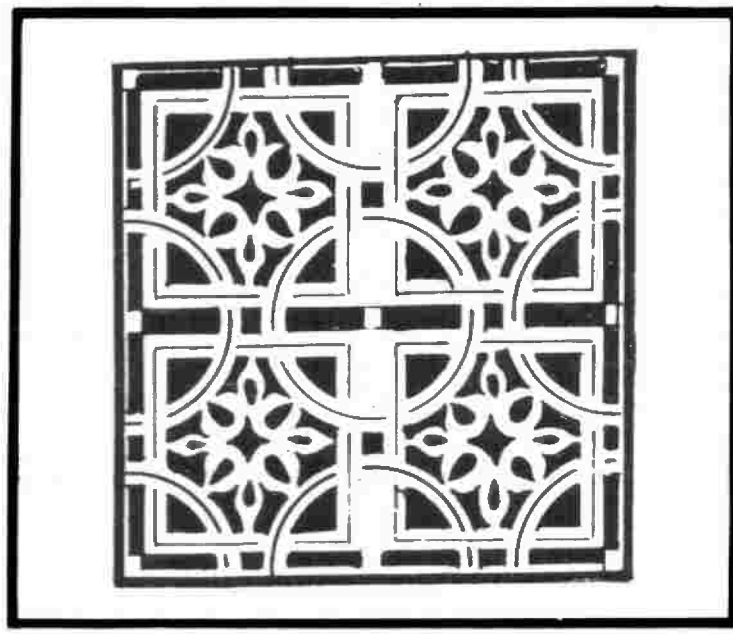

فسيفساء

كما استخدمت زهرة الأنتيمون والأكنثس على الطريقة البيزنطية والنخيلة وأوراق الكروم وغيرها من الوحدات النباتية التى نقلت بتصرف يناسب المادة .

حفر فى الرخام متخذ من أوراق العنب

حفر فى الرخام مقتبسة من وريدات وأشكال تشبه ثمر الكروم

كما استخدم الحلزون منفردا ومستمرا أو حلزونين يسيران فى اتجاه متواز أو متعارض ذوات أوراق نباتية أو أجزاء من الأكنثس أو أوراق العنب .

واستخدم الرخام بسخاء لتكسية الجدران أو جزء منها وأيضاً فى الأرضيات ومنه مازخرف بأنواع الرسوم الهندسية من الأشكال الرباعية المختلفة أو الدوائر المنسقة مع سائر التصميم وغالباً ما أحيط الرخام الملون برخام أفتح منه لوناً وقد ظهرت أمثلة من الرخام المطعم بالألوان .

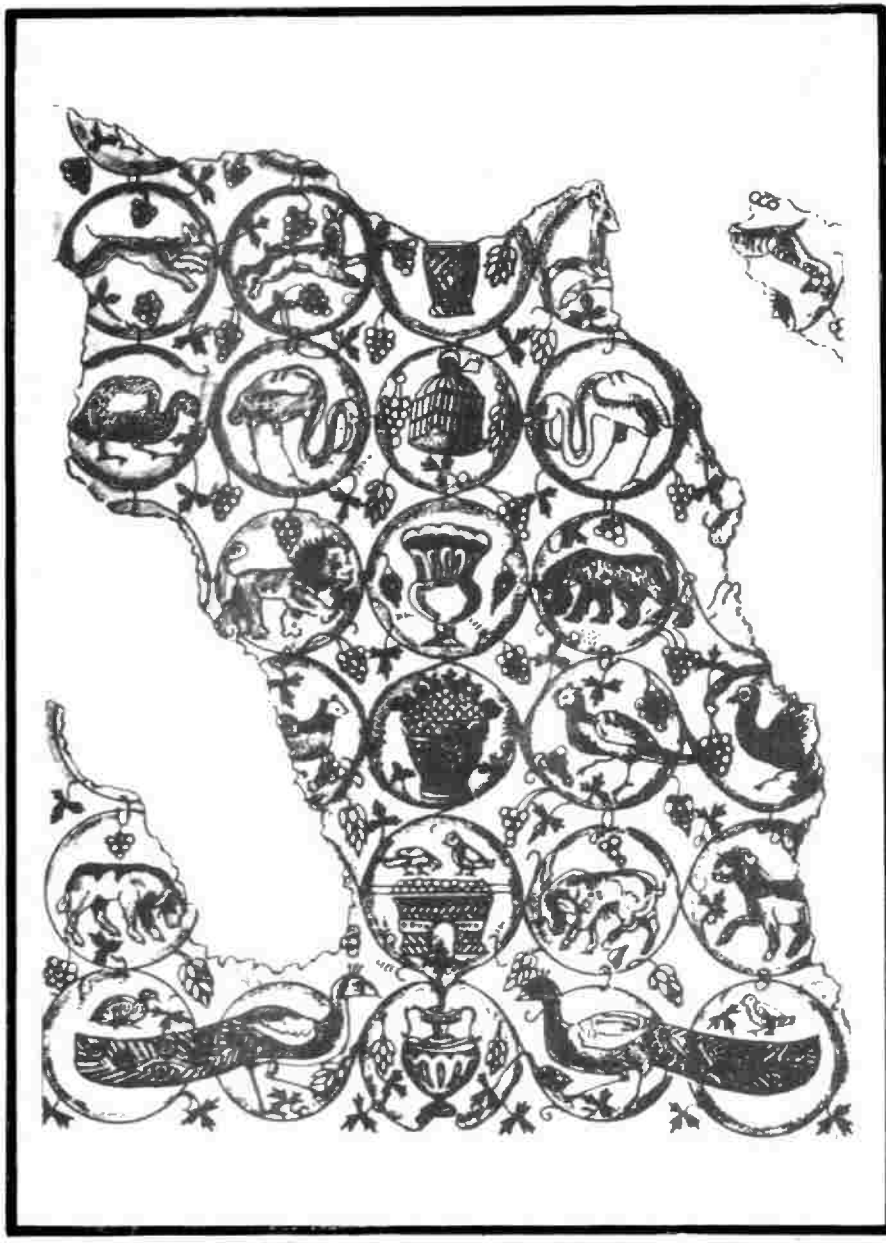

آثار قبطية يرجع تاريخها إلى عام ٦٥٠م وجدت جنوب أسوان قرب الشلال الأول وهى من القطع الممتازة المصنوعة من الفسيفساء .

أما عن الفسيفساء فى الفن البيزنطى فقد ولع الفنان بتوزيعها فى الأماكن المناسبة فاختار لها موضوعات متنوعة من زخرفية ودينية وهيأت له القباب والتواشيح والحنايا أنسب الأماكن للفسيفساء مستخدماً الرسوم الآدمية أو الحيوانية ومن رسوم الطير وكلها تعد من روائع هذا الفن الدينى مع ملاحظة تجاوب تصميمه للموضوع المنفذ على السطح وتألفت فسيفساؤه بالذهب والألوان الأخاذة لإكساب المكان فخامته المطلوبة ومابقى من المشغولات العاجية يرجع تاريخه إلى القرن السادس الميلادى وكلها تماثيل صغيرة وأيتونات وزخارف فوق أغلفة الإنجيل التى يحلى بعضها بالأحجار الكريمة .

وأما عن الألوان فى الفن البيزنطى :

فكان الذهب أكثر أنواع التمنمة شيوعاً واستخدم كثيراً فى أرضيات النقوش كما استخدمت رقائق الفضة وفوقها نقوش مزدانة بالأزرق والأخضر السندسى والأبيض الناصع والأحمر الزنجفرى الذى كان أقلها شيوعا . وقد وضعت هذه الألوان بعد تحديد الزخارف بخد من اللون الأسود أو العسلى .

كذلك استخدم اللون الأحمر والأسود العميق وقد حل اللون البيج المحمر محل اللون الأصفر الفاقع فى بعض الأحيان أو فى مكان الذهب فى أماكن أخرى .

والملاحظ إجمالا أن عدد الألوان المستخدمة لايزيد عن أربعة إلا نادراً وهذا هو السر الذى جعل الزخرفة البيزنطية شائعة الألوان بهيجة المنظر حية على مر الزمن . وقد أثرت هذه التقاليد الفنية على الفن العربى فيما بعد .

ومن تتبع أصل الأشكال فى الطراز البيزنطى نجد أنه شىء ممتع ومثقف وتعليمى وسرعان مايحدد مدى تغيرها عن الأشكال الأخرى الموجودة فى الحقب التاريخية الأخيرة .

زخارف منحوتة فى الحجر (سانت صوفيا) فى القرن السادس

ففى الرسم رقم ٦ نلاحظ الشكل الخاص لورقة النبات كما وجدت فى تيكشاير وساليزبيرج تظهر ثابتة فى سانتا صوفيا .

وعلى الإفريز فى نفس الرسم أيضا نجد تكراراً لتصميم مع تحوير طفيف فى الزخرفة رقم ١٧ وهى زخرفة من ألمانيا .

زخرفة من ألمانيا تبدو فيها تحويرا طفيفاً فى الزخرفة عن الطراز البيزنطى

والفروع المنحنية ذات الأوراق الزخرفية فى الزخرفة رقم ٤ من القرن السادس عشر وقد عاد إنتاجه مع تغيير طفيف أيضاً فى زخرفة رقم ١١ من القرن الحادى عشر

زخرفة من القرن السادس عشر

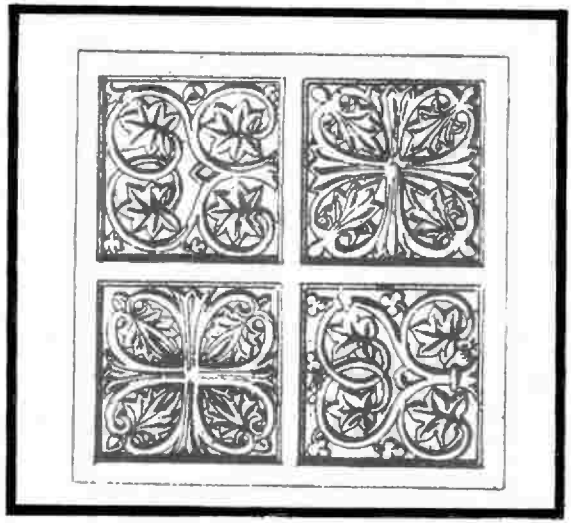

زخرفة من القرن الحادى عشر يلاحظ فيها إعادة للزخرفة فى القرن السادس عشر مع تغيير طفيف

ويلاحظ تسنينات أوراق النبات فى الزخرفة رقم ١٩ (المانيا) فى الغالب متشابهة تماما مع تلك الزخارف رقم ١ (سانت صوفيا) .

زخرفة من ألمانيا يلاحظ فيها تسنينات أوراق النبات وهى مطابقة تماماً للزخارف رقم(١) من سانت صوفيا

وفى الزخارف الآتية إشارة إلى تشابه عام فى الموضوعات من ألمانيا وإيطاليا وأسبانيا وجدت على الطراز البيزنطى .

وهى توضح أكثر الطرز الرومانى على الأخص رقم (٢٧ ، ٣٦) وهى تظهر الزخرفة المتضافرة المتأثرة بالإقليم الشمالى . ووجدت أساساً فى الطراز الوطنى .

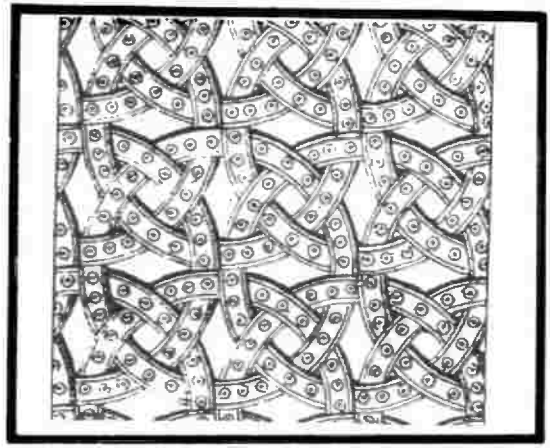

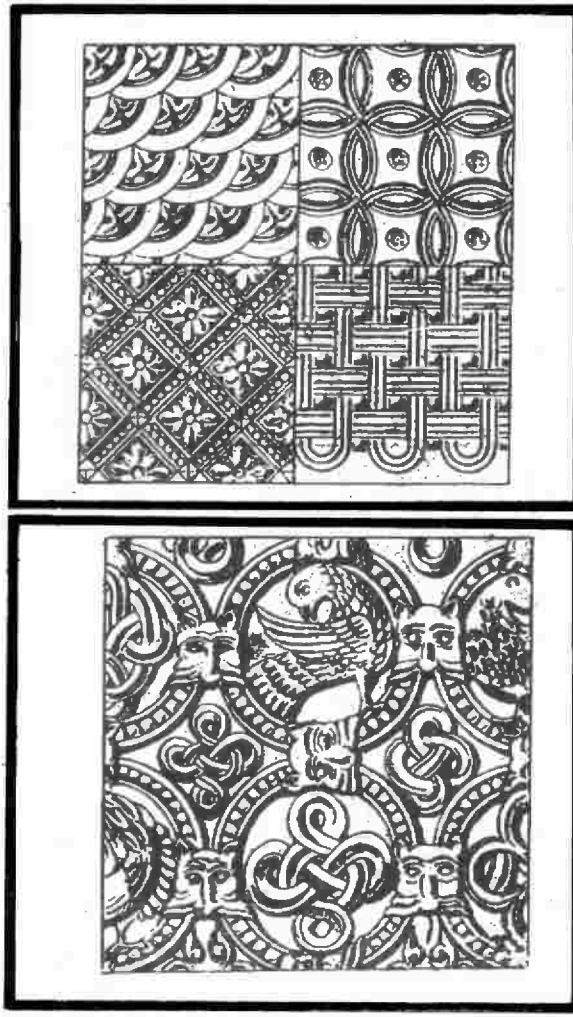

الفن البيزنطى

ومما سبق تلاحظ أن كلا من الرومان والسريان وفارس وبلاد أخرى جميعها أخذت مكانا فى الأسباب المشكلة لطراز الفن البيزنطى وزخارفه اللاحقة .

واكتملت الزخرفة البيزنطية كما وجدت فى عصر جوستينان متمثلة فى شكلها الجديد المنظم .

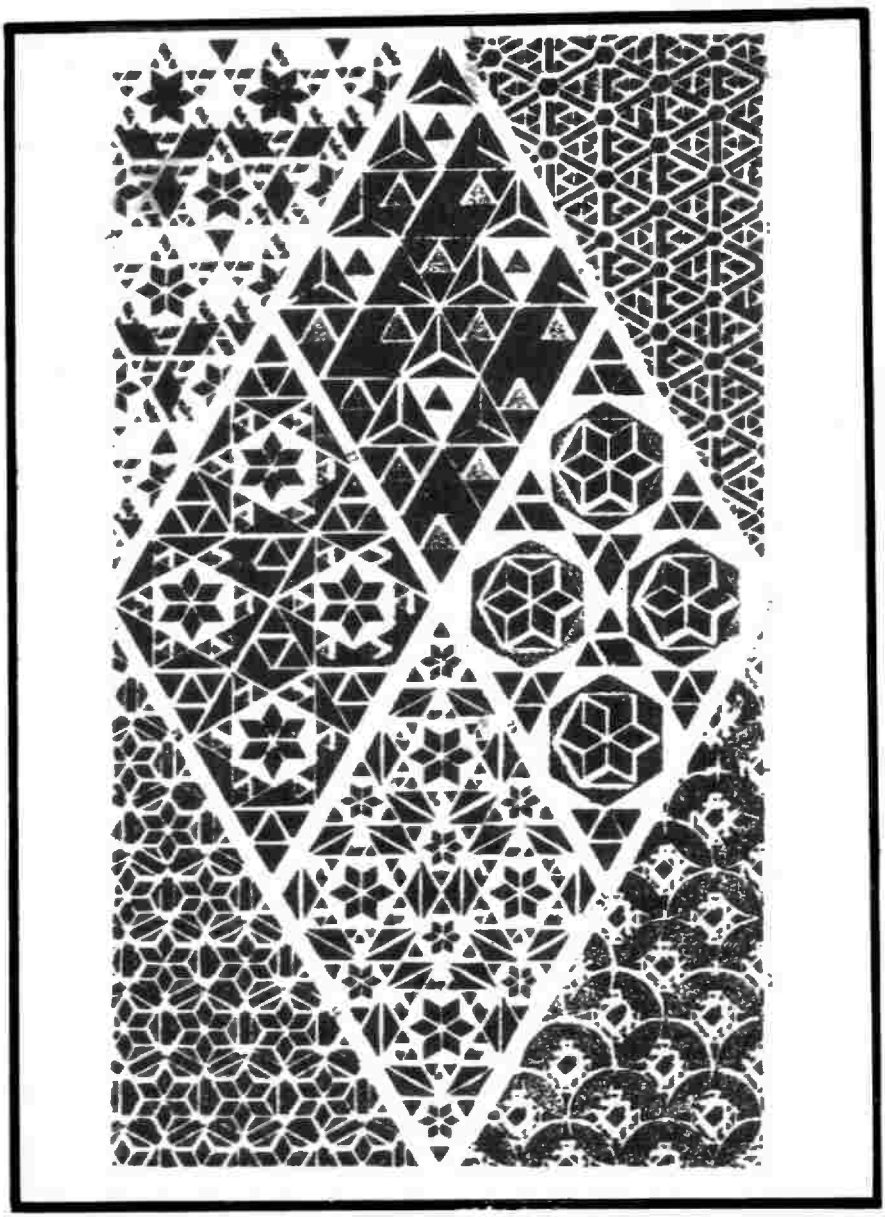

أما أرضية كل من أعمال الفسيفساء والرسم فهى دائماً وعلى وجه العموم مذهبة . والنماذج الرفيعة المضفرة فيفضل استعمالها فى التصميمات الهندسية أما إدخال أشكال الحيوان أو الأشكال الأخرى فكان محدوداً جداً فى النحت

المجسم . وبالنسبة للون فكان محصوراً أساساً فى الموضوعات المقدسة فى نمط صارم تقليدى محدثاً تغيراً طفيفاً أو أن الشعور بالتجسيم كان شيئاً ثانويا .

ومن ناحية أخرى اعتمدت الزخارف الرومانسكية أساساً على التأثير المجسم . وهى غنية بالظل والضوء والأخاديد الشديدة العمق بظلها الدامس والبروزات الكتلية والمزج الكبير لموضوعات الأشخاص لكل نوع مع أوراق النبات والزخارف التقليدية .

والأماكن التى بها أشغال الفسيفساء عامة تكون مقترنة بالرسم لزخارف ملونة . وكانت الحيوانات مستعملة بكثرة فى الزخارف الملونة مثلما فى النحت المجسم .

ولم تقتصر الأرضيات طويلاً على اللون الذهبى فقط ولكن كان هناك الأرضيات باللون الأزرق أو الأحمر أو الأخضرومع وجود كل هذه التنوعات والاختلافات إلا أنها فى النهاية تعود ثانية إلى الشخصية البيزنطية فى الفن .

وفى حالة الزجاج المرسوم أو الملون مثلا فقد تاخر هذا الفن حتى وسط أو نهاية القرن الثالث عشر .

وهناك طراز واحد من الزخارف على وجه الخصوص وهو أعمال الفسيفساء ذات الأشكال الهندسية ينتمى إلى العصر الرومانسكى خاصة فى إيطاليا والعديد من الأمثلة لهذه الأشكال الآتية .

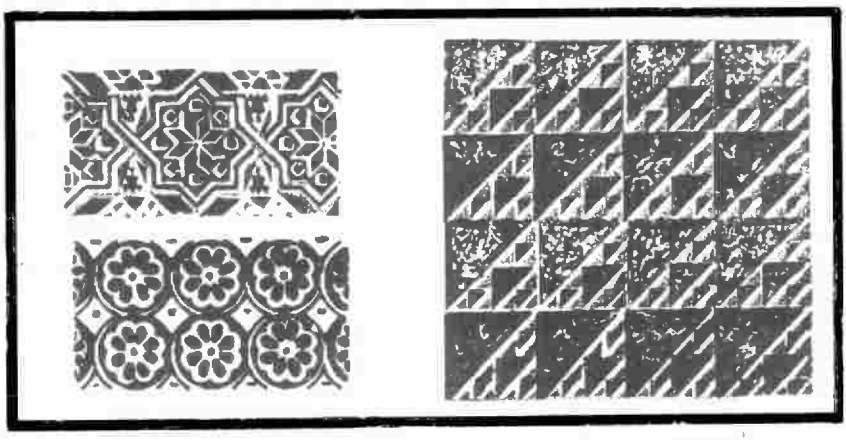

وازدهر هذا الفن أساساً فى القرن الثانى عشر والثالث عشر وتتكون هذه التصميمات من ترتيبات لأجزاء صغيرة من الزجاج على هيئة معينات فى تسلسلات متشابكة من الخطوط المائلة .

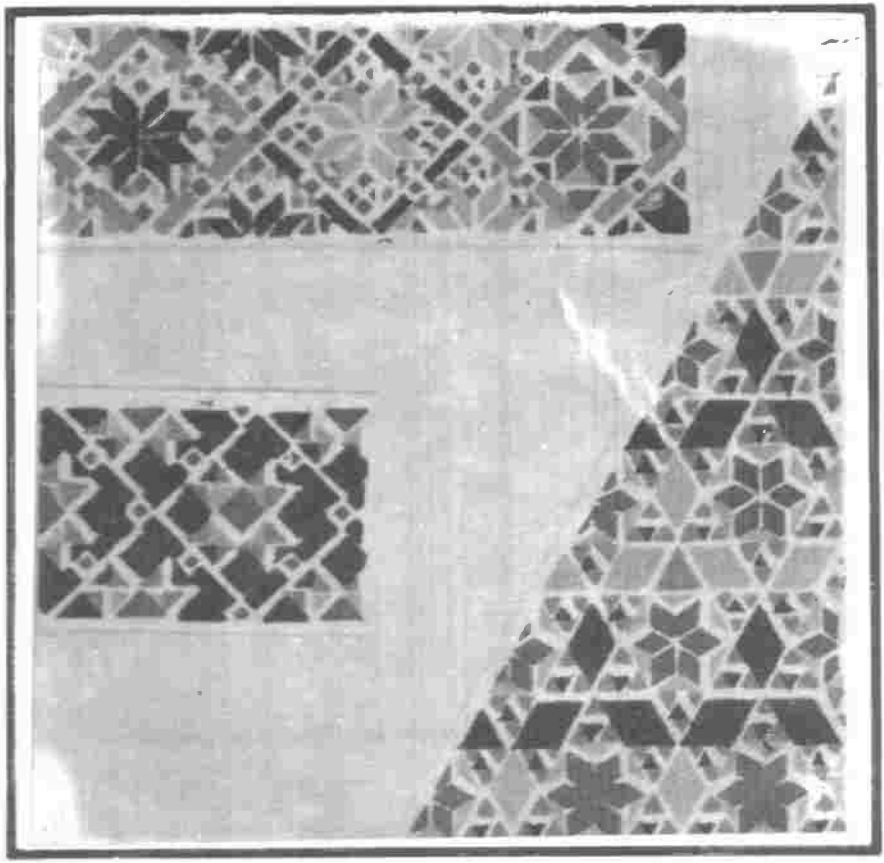

تبدو أكثر بساطة عن تلك التى وجدت فى الجنوب بروفينسيس وصقلية . حيث جلب إليها الفنانون العرب المسلمون حبهم الغريزى إلى التصميمات المتشابكة .

والتى تبدو بعض الأمثلة العادية لهذه التصميمات فى الزخارف أرقام ١ ، ٥ ، ٣٣ من مونريال قرب باليرمو .

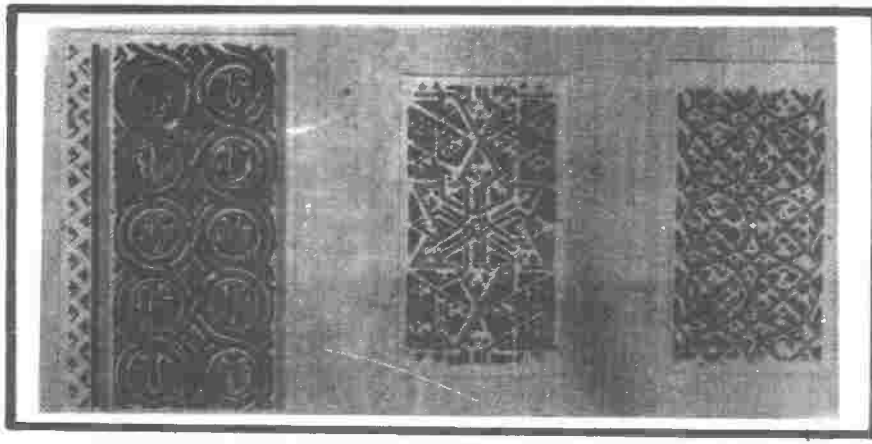

ومن الملاحظ أن هناك طرازين واضحين من التصميم معاصرة فى سيسيلى . الأول كما أوضحنا يتكون من تشابكات مائلة وهو طراز رفيع فى الفن الرومانسكى الشخصية والأخر يتكون من منحنيات وأقواس متداخلة ومتضافرة كأشكال ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥

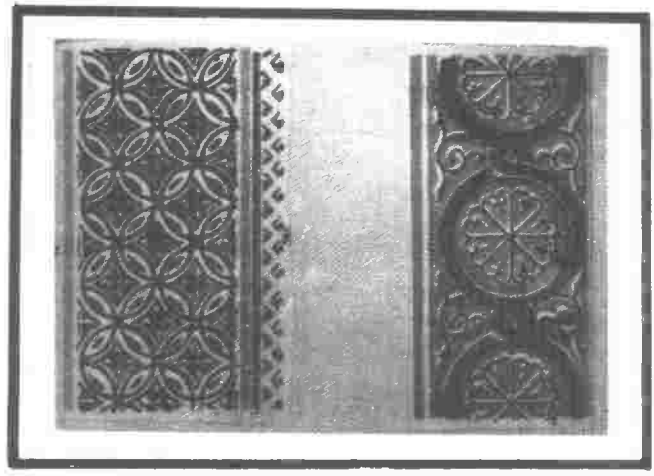

أيضا من مونيريال والتى تلاحظ فيها على الأقل تأثير الفنانين البيزنطيين .

وجميع الاختلافات جنبا إلى جنب للشخصية تنتمى إلى نفس العصر والتى تحفظ كأمثلة للطراز البيزنطى (**Ventobyzantine**) محدوداً فى مداه وغالبا هو طراز محلى وله خاصية نمطية

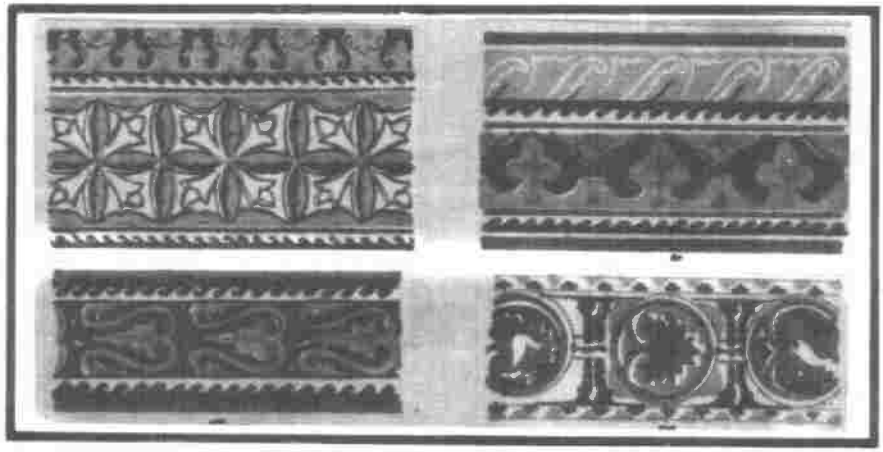

مميزة والبعض الآخر يشير إلى النمط البيزنطى مثل أرقام الزخارف ٢٣ بالدوائر المتضافرة وطريقة أو منهج الزخرفة المشهورة جداً فى (**سانت صوفيا**) كما نلاحظ فى الشكل

ويختلف شغل الموزاييك أو الفسيفساء الرخامى عن الفسيفساء الزجاجى أساساً من الطبيعة المختلفة للخامة . والمبدأ (**فى التصميمات المتشابكة الهندسية**) ظل كما هو .

والذى أخذ من عصر أغسطس فى روما وتعطى الزخارف أرقام ١٩ ، ٢١ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ فكرة جيدة عن طبيعة هذه الزخارف .

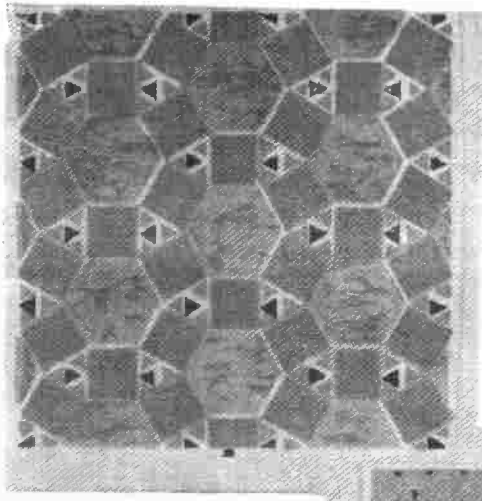

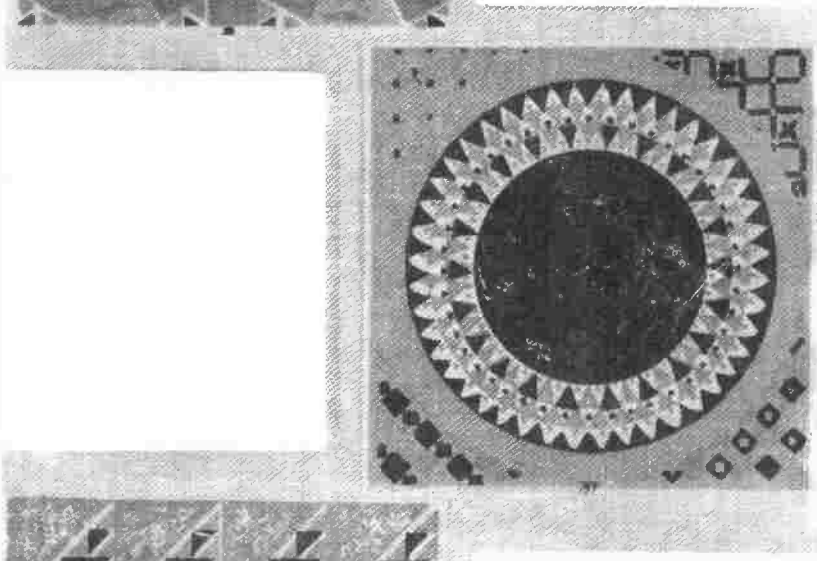

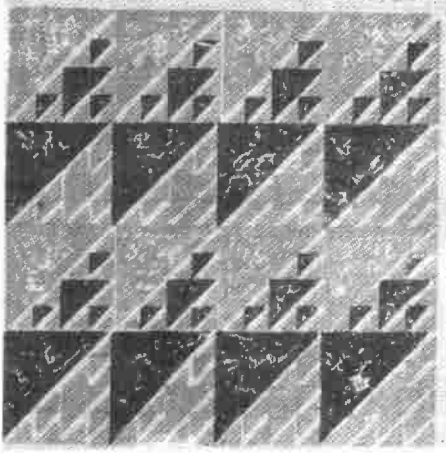

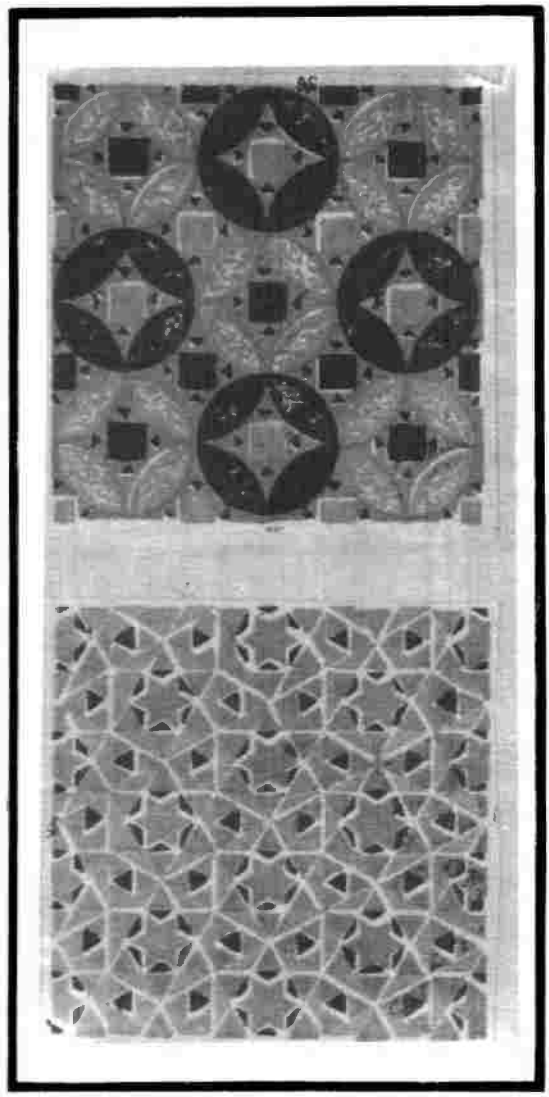

ومن الطراز المحلية نظام الرخام المطعم وجدت فى أماكن عديدة من إيطاليا خلال العصر الرومانسكى والتى أظهرت قرابة قليلة إلى كل من النماذج الرومانية أو البيزنطية مثل الزخرفة رقم ٢٠ من سان فيتال رافيينا مثل الأرضيات فى بابتيسترى وسان مينياتو فى فلورنسا فى القرن الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر .

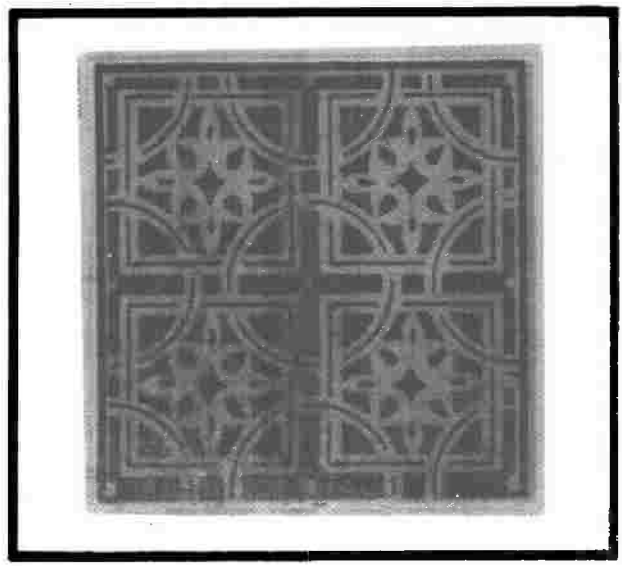

وفى هذا يكون إحداث التأثير بالرخام الأبيض والاسود فقط ومع هذه الاستثناءات وتلك المؤثرات المغربية فى جنوب إيطاليا . فإن أساسيات زخارف كل من التطعيم بالزجاج أو الرخام كانت موجودة فى التطعيم الرومانى القديم فى كل التكسيات والأرضيات فى المقاطعات التى كانت تحت حكم الرومان . وبخاصية واضحة فى أعمال الفسيفساء التى وجدت فى عصر بومباى .

والمهم عند ملاحظة أو معاينة تأثير الفن البيزنطى الموجود فى أوروبا من القرن السادس إلى القرن الحادى عشر الذى ظل إلى مابعد ذلك .

نلاحظ أنه ليس هناك أناس ممن تأثروا بالفن البيزنطى أكثر من أمة العرب العظيمة المنتشرة التى نشرت دين سيدنا محمد ﷺ وغلب طابعها على البلاد القديمة فى الشرق وأخيراً رسخت قدمها حتى فى أوروبا .

والمبانى التى أقاموها العرب فى القاهرة والإسكندرية والقدس وقرطبة وصقلية تشهد بقوة تأثير النمط البيزنطى عليها .

وقد أثرت تقاليد المدرسة البيزنطية إما بالكثير أو القليل على كل البلاد المتاخمة لها .

وفى اليونان (**الإغريق**) ظلت هذه التقاليد البيزنطية بلا تغيير إلى عصر متأخر جداً .

وقد استخدمت بدرجة هائلة كقاعدة لفن الزخرفة جميعه فى الشرق وفى أوروبا الشرقية كذلك .

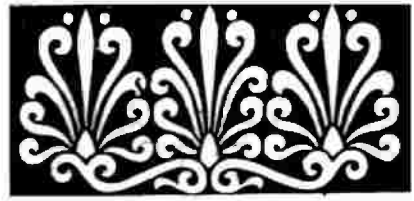

المراجع

1 - The Gramar of orivame ivt bg owen jones

2 - Architecture classie and Early christian by professor T. Rogfrsmith

3 - الطرز المعمارية الإيطالية تأليف بروفسور
تشارلز جورلى

4 - تاريخ الزخرفة للتعليم الثانوى الصناعى
محمد توفيق جاد